المكان في شعر عثمان لوصيف

مدخل: حفل المتن الشعري الجزائري المعاصر بتوظيف متعدد ومتنوع للمكان، تفاوت من شاعر إلى أخر ومن مرحلة إلى أخرى لم نشهد تكثيفا متميزا إلا عند الشاعر عثمان لوصيف الذي سوف يكون موضوع هذه التطبيق لنكشف كيف تعامل مع الفضاء الجغرافي.

تجليات المكان في شعر عثمان لوصيف : كان حضور المكان عند الشاعر عثمان لوصيف حضورا متميزا إذ يمكن عده عنصرا مشتركا في جميع دواوينه وهذا الجدول يبين ذلك :

الديوان	القصيدة
الكتابة بالنار	إعلان عن هوية ،آه يا جراح، الطوفان .
شبق الياسمين	فلسطين ، باتنة ، كالبحر أنت ، الجبال ، الأوراسية .
اللؤلؤة	سطيف ، عرس البيضاء، ورقلة، المشنقة، طولقة ، الشوارع ، الممرات ، الأغواط البلبل، جفاف ، يا سمينة.
أبجديات	الجلفة ، تيزي و زو .
زنجبيل	النيل ، بين اثنين ،غروب ، الذرة ، القطن، الشاعر و الزورق ، الغاب ، مياه، تهويمة .
غرداية	غرداية .
براءة	وهران الصاعقة .
الإرهاصات	المعبد ، باتنة ، الجنية الساحرة ، طولقة ، نشوة ، التحدي ، عر وسين كنا ، وقفة أمام البحر .
أول الجنون	بجاية .

فالمكان عند الشاعر عثمان لوصيف علامة محورية و منه تتفرع علامات أخرى :المكان المرأة، المكان التاريخ، المكان الحب ، المكان الحلم ...

و إذا حاولنا إبراز موضوعة المكان الجغرافي عنده و تحديدها نجد محورين للمكان :

١ . المحور الأول هو المكان الجزائري (الأوراس ، باتنة ، طولقة ، غرداية، وهران ، ورقلة ، الأغواط ، سطيف ، الجلفة ، تيزي وزو) فقد توزع المكان بين الشرق و الغرب و الشمال و الجنوب ، وهذا يحمل دلالات عديدة وهي:

أولا : انفتاح الشاعر على أمكنة جزائرية متعددة .

ثانيا: الانتماء المتعدد لكل مكان في الجزائر .

ثالثا : تحول المدينة إلى وطن كما في قصيدة غرداية .

رابعا : تعدد أشكال المكان في بنية النص الشعري . خامسا : تداخل المكان و النص والشاعر حيث يصبح المكان هو الشاعر في بنية لغوية .

٢. المحور الثاني هو المكان العربي (فلسطين ، القدس ، السودان) حيث تركز في قطرين اثنين هما: فلسطين (القدس) وما تحمله من دلالات دينية.و السودان الذي خصه بديوان شعري هو : زنجبيل. و قد جسد الشاعر التحام الدول العربية و العودة إلى موطن الفيتو ري الذي حمل هموم إفريقيا .وسوف نقصر الحديث في هذه الدراسة عن المكان الجزائري و نترك تناول المكان العربي إلى مناسبة أخرى .

و المكان الجزائري من حيث التحديد نوعان اثنان أيضا:مكان محدد (المدن)و مكان غير محدد (السماء ، الجبل ، الغاب)حيث يمكن أن تكون في أي ولاية أو أي دولة.و إن أردنا التحديد و ربط الأشياء قلنا إنها في طولقة موطن الشاعر و مقر إقامته. أما البحر فهو بحر إحدى المدن الساحلية التي زارها .ف " النص أداة اتصالية لا تعبر عن صاحبها وتكشفه لنا فقط بل إنها تتدخل في تشكيل المتلقي، و من هنا فإن النص يصبح مهما و خطيرا في الدرجة نفسها ، و لكن لن نتمكن من ملامسة خطر النص و أهميته إلا من خلال تشريحه بهدف فهمه أولا ثم تفسيره بعد ذلك . "

فمن السماء إلى الأرض عبر البحر كانت رحلة الشاعر عثمان لوصيف وكل مكان يكشف لنا عن دخيلة من دواخله و رؤيته للحياة و الكون . فالسماء كفضاء و مكان فيها أمل الشاعر إذ تتحول إلى انسانة واعية فيناديها:

أين مني نجومك الخضراء

والنواقيس

و المدى

يا سماء

أين مني رذاذك البكر يهمي

بين عيني

حين يأتي المساء ؟ (

و لم يكن عثمان لوصيف يحمل مشاعر ابن خفاجة و لم يتكلم بلسانه و إنما جاوزه في أن تمنى أن يكون جبلا :

جبل . . ليتني جبل من حجر

تعصف الريح لكنها تحت أقدامه تنكسر

ليتني صخرة تتسربل بالدهو في القمة الشاهقه

ليتني عاصف أو مطر

ليتني . . ليتني كيمياء

تتسلق نار السماء

ثم تهبط كالصاعقة

في رفات البشر

جبل . . ليتني جبل من حجر !

فكل العناصر الثلاث (السماء ، البحر ، الجبل) تحمل دلالات متقاربة ، فهي رمز للوحدة و السكينة و الحب والود و الصفاء .لجأ إليها الشاعر مثل الرومانسيين الأوائل الذين تتشكل عوالمهم من العناصر الطبيعية ،و محاولة أنسنتها،و جعلها بدائل عن عالم البشر المليء بالمتناقضات و الحقد و الشر...فهي عناصر إيجابية تحمل دلالات نفسية تمكننا من الاقتراب من عوالم الشاعر عثمان لوصيف . وتشكل مدينة طولقة "مدينة الشاعر " الانتماء ، لكنها مدينة سلبية في رأي الشاعر ، فهي مدينة مجنونة ، و مقبرة ...، و بالرغم من ذلك فهي قريبة منه لأن "علاقة الكاتب بمدينته ، بالمدينة الأولى علاقة خاصة استثنائية في آن واحد،إذ مهما ابتعد لابد أن يعود إليها،و هذه العودة تتمثل بأشكال عديدة إنها المنبع الذي يمتد في أعماقه و يمنحه باستمرار مادة للكتابة و الذكرى ، و يبدو أن المدينة الحلم كلما ابتعد عنها جغرافيا كلما أصبحت أقرب إلى الكاتب "

و قد كانت مدينة طولقة في ديوانه لؤلؤة عبر ثلاثة نصوص شعرية أحدها فقط حمل عنوان طولقة ،و النصان الآخران بعنوان:يا سمينة ، و المشنقة،و ها هي النصوص الثلاث في هذا الجدول :

يا سمينة ص ٥٠	*المشنقة ص٥٢*	*طولقة ص٥٤*
طولقة ترحل بالعاشقين	طولقة !	مقبره
مجنونة	طولقه !	و زواحف تسحب
تعانق الياسمين	حين غنيت للحب	أكفانه
نخيلها ينسى عراجينه	أنكرني الأهل و الأصدقاء	و تدب إلى المقبرة
و زميلها	و قال لي أبي هذه زندقة	و أنا المتوحد بالنار و
يبكي	و أنا صاعد في التراويح	الجلنار
على الظاعنين	نحوك أيتها المرأة المشنقة	تجرعت من سمها الوثني
و الزهرة البيضاء	نحو عيني	و لكنني الآن
ما ودعت	إن دمي يتدفق أدعية	ألعن صحراءها المقفره
قلبا يفيض بالأسى	و يدي زنبقه	مقبره و زواحف
والأني	آه يا ربتي	تسحب أكفانها
طارت بها الريح	في جهنم أو في الندى !	و تدب إلى المقبره !
فلا نفحة	آه طولقه !	
تحي بها	آه طولقه	٠٤. ١١. ١٩٨٩
حشاشة الميتين	١٨,١١,١٩٨٩	
١٩٨٤		

والنص الشعري الرابع الخاص بطولقة كان في ديوانه الإرهاصات ، الذي جمع فيه قصائده الأولى ، و يبدو الاختلاف واضحا بين هذا النص و النصوص السابقة. إذ ركز في هذا النص على المنحى الجمالي الطبيعي لطولقة بينما في النصوص الأولى تمثل حالة نفسية:

النخيل هنا كالعرائس في عيدها الذهبي
و العراجين مثل الثريات أو كالحلي
و الرمال التي خضبتها الدموع
الرمال التي قطرتها الشموع
غاصت الروح في صهدها الدموي
و تهب النسائم بين السعف
فالمدى تتجاوب أصداؤه و الندى يند رف
و القلوب التي شرقت بالدموع
القلوب التي احترقت كالشموع
هزها الهوس البكر فهي متيمة ترتج
و العصافير مجنونة تستحيل
شررا يتطاير عبر الفضاء القتيل

و الزهور التي فجرتها الدموع
الزهور التي شعشعت كالشموع
غمست بالغوى دندنات الأصيل
أين يمضي خرير الجدول أين
و الفراش الذي ينتشي بين بين
إذ نهز جد وع النخيل فتهمي الدموع
رطبا يتوهج مثل الشموع
في ليالي الزغاريد أو كاللجين
آه ! يا واحة تترجرج عبر الشفق
دمت أنت ! فأرواحنا تتناثر مثل الورق
و الدموع الهوا مي ... الدموع الدموع
أشعلت بالجوى جهشات الشموع
غير أنا نحبك أكثر حين يجن الغسق !

و من حيث التواتر تأتي مدينة باتنة بنصين شعريين،بالعنوان نفسه "باتنة"(الأول نص من شعر التفعيلة في ديوان شبق الياسمينص ١٠٩ ، و الثاني نص عمودي في ديوان الإرهاصات ص٣٢)

و في ديوان لؤلؤة نصان اثنان يتعلقان بباتنة ، الأول بعنوان شوارع باتنة ص ٥٥ و الثاني بعنوان الممرات ص ٥٩.و يبدو الشاعر عثمان لوصيف في الثاني أكثر شعرية،لأن خطابه إليها مفعم بالحب و الحيوية، اشتبك التاريخ العريق المورق مع حاضر الشاعر الجاف القاسي ، ليجد باتنة هي الملاذ،و الحصن المنيع الذي يحتمي به :

سألوني عن هوى باتنة قلت نار في ضلوعي تستعر
هي في القلب وعيناها على صفحة الشعر مرايا و صور
أنا أهواها و أهوى و خزها أين وخز الروم أم أين الغجر
أنا غنيت ليالي عرسها و حملت العشق نارا و وتر
و قرأت المجد في دفترها فالجبال الشم وحي و صور
قمم الأوراس كم ظل هنا ترسل البرق شواظا و شرر
تقبس الأجيال من آياته و فرنسا لم تعد تخفي الخبر
فلقد خرت هنا مدحورة و ارتوى من دمها هذا الحجر
ثورة قد فجرت بركانه إن صرخت لبى القدر
إيه يا زنبقة القلب و يا غنوة رقرقها ضوء القمر
ها أنا جئتك صبا ظامئا أحمل الشمس وحبي والزهر
في فمي أغرودة لحنها طيرك الشادي وغناه االشجر
فاحضنيني إنني محترق وامسحي عن جبهتي ملح السفر !

فباتنة ليست تاريخا فقط بل هي اللحظة التي يرى الشاعر من خلالها هذا التاريخ و يحتمي به .

ومن حيث الحجم نجد أكبر نص خص به المكان هو نص غرداية التي خصها الشاعر بديوان منفرد.وإذا أردنا التحديد أكثر فإن المكان الجزائري من حيث الجغرافيا ينقسم إلى : أماكن ساحلية(بجاية ، تيزي وزو ،و هران) و أماكن داخلية

(سطيف ، باتنة) و أماكن صحراوية (الجلفة ، ورقلة ، الأغواط ، غرداية ، طولقة) و هي مدن زارها الشاعر عثمان لوصيف و كتب نصوصا شعرية فيها في مدينة طولقة كما هو مثبت في الدواوين ما عدا قصيدة ورقلة فقد كتبها بالمدينة نفسها .

و قد كتب الشاعر هذه النصوص المرتبطة بالمكان عبر فترات زمنية متباينة (من ١٩٨٤ إلى ١٩٩٦) و من أوائل النصوص عن المكان الجزائري قصيدة بجاية(كما أخبرني بذلك الشاعر عثمان لوصيف في رسالة مؤرخة بتاريخ ١٨. ماي ٢٠٠٠) و التي ضمنها ديوانه " أول الجنون " . الذي لم يصدر بعد . و آخر قصيدة هي : تيزي وزو (٢٠. ١٠. ١٩٩٦) و من ناحية الكم تراوحت النصوص المكانية بين الطول و القصر.

و تشترك هذه النصوص في أخذ ها صفات كثيرة تطلق على المرأة وعلى هذا تتحول المدينة إلى امرأة(المدينة معادل موضوعي للمرأة) عند الشاعر عثمان لوصيف.كما أن مدينة وهران تنفرد عن بقية المدن الأخرى (بعد غرداية) في كثافة الصفات المنسوبة إليها ، وهذا راجع إلى موقع المدينة في قلب الشاعر ، فكلما كانت القصيدة طويلة كانت الصفات كثيرة .

و إذا عدنا إلى القصائد فإننا نجدها تتفاوت من الناحية الجمالية و سوف نقصر الحديث عن تلك المدن في إبراز شعرية خواتمها فخاتمة القصيدة هي أخر ما يتبقى في ذاكرة المتلقي :

١ . *الأغواط* : ها أندا أتم فيك رحلتي

و هاأنا أكمل فيك آيتي

و أختم فيك آخر الأشواط

و لن نكمل مشوارنا إلا في المدينة التي نحب ، فالأغواط القريبة نفسيا منه قريبة جغرافيا أيضا منه .

الأغواط = نهاية الرحلة

الأغواط =الآية الكاملة

الأغواط = الشوط الأخير

٢ . *و رقلة* :

دعيني أغني

لأعراسنا المقبله

آه .. يا زهرتي !

آه .. يا ورقله !

و رقلة ثلاثية مركبة من : العرس و الغناء و الزهرة ، ربما غدا أو في المستقبل القريب .

٣ . *سطيف* : و جدتك بين يدي بثوب الزفاف

فأيقنت أن الغرام سطيف

ضممتك فانهمر الثلج

غنت عيونك

وابتدأ العرس

ثم ارتمينا على الريش ملتهبين

ونمنا هنالك تحت الندى شفه في شفه !

الشاعر و العرس و العروس (سطيف) = الفرح الدائم لأن المكان يبعث البهجة في النفس فقد استحالت سطيف إلى عروس في ليلة زفافها وكان اللقاء مع الشاعر .

٤ . *وهران* : يا يد الله .. يا يدها

ضمدي جرحي النازف،

انبسطي .. مسحي جبهتي

و أعيدي لعيني ذاك الشعاع الحلبي
و الأفق الرحب و الصحو و المرتقى
يا يد الله ... يا يدها اللدنية

وهران = الشفاء و الأمل في الحياة

٥ . *الجلفة* : ا ... ل ... ج
بعدها لا م ... و فاء .. ثم تاء
وخز الحلفاء و الشيح
سهوب و ثغاءات
سخاء البدو
شبابة راع يزرع الليل مرايا
قهوة ... نجوى ... حكا يا
و أريج امرأة وهاجة ...
فاكهة العشاق في الجلفة جمر و شتاء

المرأة حاضرة دائما في المكان عند الشاعر عثمان لوصيف تتعدد الأمكنة لكن المرأة واحدة .

٦ . *تيزي وزو* : تيزي وزو
قمم تتشامخ عالية
متعالية
قرآن يتلى و مآذن تتصادى
في الأفاق .. و تعتز
و أنا المتصوف فيك
الغارق فيك
أنا الموقظ ريحك
المستنفر روحك
و أنا اللغز ... اللغز !

تيزي وزو = الشموخ و الانتماء و الحضارة و مدينة الشاعر المتصوف الغارق في الألغاز

خاتمة :

نفاذ البصيرة و عمق الرؤيا لا تتأتى لجميع الشعراء ، وبها تتم قراءة المكان ، كتاريخ و هندسة و جغرافيا ، وبها يتم الالتحام بالمكان كموضوع شعري للإبداع و كمعبر للتعبير عما يختلج الشاعر من عواطف و مشاعر عن طريق الإسقاط تارة و عن طريق تبادل المواقع تارة أخرى . و عند ذاك تتم قراءة مرة أخرى كعنصر دال بدلالات متعددة ، إذ تتحول الأمكنة عند أغلب الشعراء إلى هواجس و هموم يحملها الشاعر نيابة عنا . و لن يكون ذلك إلا بالنسبة للشعراء الذين يسيطرون على المكان و يحتوونه . مثلما رأينا عند الشاعر عثمان لوصيف الذي تعامل بشكل متميز مع المكان الجزائري و خاصة غرداية التي خصها بديوان شعري منفرد في شكل قصيدة مطولة تميزت عن باقي نصوصه الأخرى ، و هذا التميز كان نتيجة التداخل مع المكان و السيطرة عليه و تحويله إلى رمز شعري و فني قلما نصادفه في شعرنا الجزائري المعاصر .

ملاحظة :للتطبيق مراجع